

هذا المجدّ الأول فمن المجدّ الأخير؟

للدكتور محمد صدقي البورنو

الأستاذ المساعد - كلية الشريعة بالرياض

في المدينة وبين رياضها الغناء وقصورها الفيحاء وفي ضياء أنوارها المشعة بالعلم والمعرفة ، وفي ذروة استقرارها وعنفوان حضارتها رأى النور في بلد النور بين أبوين كريمي المحتد عريقي الأصول من عدي وعبد شمس وكان ذلك بين سنتي ٦٠ و ٦٣ من الهجرة النبوية . ذلكم هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس . وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .

وحين زعزع استقرار المدينة وأبيح حماها على يد المسرف بن عقبة كان عمر لا يزال طفلاً فلم يع من آثار تلك النكبة شيئاً ولم ينطبع في ذهنه من صورها أثر وفي أواخر سنة ٦٤ طرد أهله من المدينة على يد أنصار ابن الزبير رضي الله عنهما ولكنه على ما يظهر لم يطرد مع المطرودين ولم يخرج مع الخارجين حيث التجأ مع أمه إلى أخواله آل الخطاب .

ويقوى أمر مروان بن الحكم - جد عمر لأبيه - ويفتح مصر سنة ٦٥ هـ . ويطرد منها عامل ابن الزبير ويتولى حكم مصر والشمال الأفريقي أبوه عبد العزيز بن مروان ، وبعد أن يستقر به الأمر يرسل فيستدعي زوجه - أم عمر - من المدينة

مع أولاده ، ولكن عمر يبقى في المدينة عند أخواله ليتأدب ويتفقه ويكمل أبوه أمر تثقيفه وتعليمه إلى عالم عظيم وفقه جليل من فقهاء المدينة هو صالح بن كيسان الذي أخذ به بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مع خصال من الخير موروثه من كلا أبويه ففيه حدة ابن الخطاب وشفافيته وفيه عزة بني أمية وترفعهم وتعاليمهم ، وكيف لا يكون كذلك من أبوه عبد العزيز بن مروان وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وعمه عبد الملك بن مروان خليفة الدنيا وحاكم الدولة وقد رتب له ألف دينار شهرياً .

ويحفظ كتاب الله ويتعلم العربية والشعر ويجالس العلماء والفقهاء والصلحاء والشعراء والمغنين ويحظى من كل علم بطرف مع نفس ذواقة تواقه وحس مرهف وعزة موروثه وغنى مفرط كل ذلك يجعل منه شاباً متعطراً إذا مشى تبخر في مشية ابتدعها فحملت واسمه أصبح جوارى المدينة يتعلمنها لحسنها ، ومع ذلك فقد كان فيه عفاف نفس وتسام عن سفاسف الأمور وبعد عن المحرمات فلم يُعَبَّ أو يذم في فرج أو حكم .

ويشج وجهه في زورة زارها لأبيه إذ هو على مصر فتكتمل فيه العلامة التي بشر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله « إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر بلاء الأرض عدلاً » ويطلق عليه لقب الأشج (١) .

ويموت أبوه عبد العزيز وهو في حوالي العشرين من عمره فيضمه إليه عمه عبد الملك بن مروان حاكم الدولة ويقيض عليه ويقربه ويؤزجه من ابنته فاطمة

(١) من أراد المزيد عن عمر بن عبد العزيز فليراجع سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي وحلية الأولياء للأصبهاني والتصحيحات المالية لعمر بن عبد العزيز [وأثرها لعمد صدق البورنو .

بنت عبد الملك ويوليه خناصرة = بليدة في الشام = تدريباً له على الحكم وتعويداً له على سياسة الناس ، وكان عبد الملك كان يحس أن لابن أخيه هذا شأنًا فكان يباهي به أبناءه ، أو كان عبد الملك أراد بتقريبه أن يطيب خاطره إذ حرم بموت أبيه عبد العزيز من الوصول إلى الخلافة التي كان مرشحاً لها بعد عبد الملك ولكن عاجلته المنية فأوصى بها عبد الملك لابنيه الوليد ثم سليمان .

وموت عبد الملك ويتولى ابنه الوليد الأمر من بعده ويشهد بالمدينة وسكانها أذى واليها هشام بن إسماعيل المخزومي ويشتهر في معاملته لأهلها وخاصة علماءها وفقهاءها وبالأخص ما فعله مع سعيد بن المسيب شيخ علماءها حينما رفض البيعة للوليد وسليمان ، ويريد الوليد أن يخفف عن أهلها بعض ما يجنون فيوليه ابن عمه عمر بن عبد العزيز فيصل إليها سنة ٨٧ هـ . وأمنحته تحمل على ثلاثين بعيراً . فيكون أول عمله أن يجمع إليه عشرة من علماء المدينة وفقهاءها هم عروة بن الزبير وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة أستاذة ومعلمه وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبو بكر بن سليمان بن أبي حنمة وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت ، ويقول لهم : إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أحراراً على الحق ما أريد أن أقطع أمراً إلا ب رأيكم أو رأي من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو يبلعكم عن عامل لي ظلالة فأخرج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني» (٢) .

ويشجع بوجود عمر بن عبد العزيز في المدينة وما حولها جو من العدل كانت تفتقر إليه أكثر أجزاء الدولة الأموية ويتسامع الناس في البلاد التي نكبت بالولاية الظلمة وخاصة في العراق بعدل عمر بن عبد العزيز وحمائته للمظلومين فيفرون إلى المدينة

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤٥/٥ ، الأخبار الطوال للذهبي ٣٢٦ ، وسيرة ابن الجوزي

٣٢ ، والتصحيحات المالية ص ٣ .

ومكة من ظلم الحجاج والوليد فيؤويهم عمر ويبسط عليهم أجنحة الرحمة والأمن فيثير ذلك ثائرة الحجاج فيشكو للوليد ويحذره عاقبة ذلك فيعزل عمر عن المدينة ويستدعيه إلى الشام .

في الشام :

يخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة كاسف البال حزين النفس لا لأنه عزل عن إمارة الحجاز ولا لأنه فقد سلطانا ومكانة لا لم يكن هذا يراود ذهنه وإنما كان كاسف البال لأنه خشي أن يكون ممن نفته المدينة حيث تذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة تنفي خبيثها كما ينفي الكبر خبيث الحديد » .

وقد خرج من المدينة متوجهاً إلى الشام ، ولكنه آلى على نفسه أن يقف للوليد بالمرصاد لعله يخفف عن الناس شيئاً من ظلمه وجبروته ، وكان عمر من الوليد بمنزلة حسنة لموقع زوجه فاطمة بنت عبد الملك أخت الوليد ولمكانة عمر العلمية والفقهية فكان يستشيريه في كثير من أموره ، وما كان عمر يترك فرصة تمر دون نصيحة أو تخفيف ظلم أو إزالة جور ولو وصل الأمر إلى الشدة والمجابهة مع الوليد ، حتى غضب عليه الوليد يوماً لما جابهه به وغلظ عليه فيه بصدعه بالحق فأمر الوليد فطيسن عليه ثلاثة أيام حتى كاد أن يموت اختناقاً فاستشفع له بعض أهله فعفا عنه الوليد فأدركوه وقد مالت عنقه (٣) .

ويخفف الله عن الأمة فيموت الحجاج ثم يموت الوليد ويتولى الأمر سليمان بن عبد الملك فيتخذ عمر مستشارا ووزيرا ويحاول عمر ما استطاع أن يخفف من الظلم الذي يزرع تحته الناس ويكف عنهم أذى سليمان مع النصيحة لسليمان في كل مناسبة وحين . ويحج مع سليمان سنة ٩٧ هـ . وحينما يصلان المدينة يعطي سليمان الناس

(٣) سيرة ابن الجوزي ٢٤٨ ، المحاسن والمساوي للبيهقي ٣٠٨/٢ والتصحيحات المالية ص ٣ .

ملا كثيراً وهبات وهدايا ثم يسأل عمر فيقول له : كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص ؟
إذ ظن سليمان له أنه بذلك قد أَرْضَى الناس جميعاً ولكن عمر وهو الخبير بمواقع
العدل يقول : رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم .

وينظر سليمان إلى معسكره الممتد بعقبة عسفان عند الجحفة فيعجبه ما يرى
من حجره وأبنيته فيقول لعمر ، كيف ترى ما ههنا يا عمر ؟ فيقول عمر :
أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً أنت المسئول عنها والمأخوذ بها ، وفي عرفات يرى
سليمان كثرة الخلائق وقد أتوا رجالاً وعلى كل ضامر ، فيطرب سليمان لما يرى
ويظن أن كثرة الناس هناك دليل الأمن والطمأنينة في زمانه فيقول لعمر : يا أبا حفص
أما ترى كثرة الناس في الموسم ؟ ولكن عمر كان ينظر بغير منظار سليمان فيقول
له : هؤلاء خصماؤك يا أمير المؤمنين . فيقول له سليمان : ابتلاك الله بهم .

وترعد السماء وتبرق فيفزع أهل الموقف ويكون سليمان أشدهم فزعاً وينظر
إلى عمر فإذا به يضحك فيقول له : أتضحك يا عمر وأنت تسمع وترى ما نسمع
وما نرى ؟ فقال عمر : يا أمير المؤمنين هذه رحمة الله قد أفزعتك فكيف لو جاءك
عذابه ؟ (٤) .

ولاية العهد وتحمل الأمانة :

ويرابط سليمان بن عبد الملك في مرج دابق يرسل الجيوش لفتح القسطنطينية
فيمرض هناك ويحس بقرب الأجل فيريد أن يعهد فلم يجد في أولاده من يصلح
للأمر فيستشير رجاء بن حيوة في عمر فيشير عليه فيكتب له عهده ويأخذ بيعة الناس
لمن في العهد دون أن يعلن من فيه ، ويموت سليمان ويصل عمر بن عبد العزيز إلى
الخلافة على غير رغبة منه ولا مشورة فماذا يفعل وقد تحمل أمر الأمة وتقلد الأمانة
العظمى مكرها ؟ .

(٤) سيرة ابن عبد الحكم ٢٦ و ١١٢ وابن الجوزي ٤١ وابن الأثير ١٢/٥ .

الحالة قبل عهد عمر بن عبد العزيز :

لن نستطيع أن نبين مظاهر التجديد التي قام بها عمر بن عبد العزيز واضحة إلا إذا رأينا مثلاً صورة مبينة للحالة السائدة قبل توليه الخلافة وإلا إذا دققنا النظر في الأوضاع السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية التي كانت تحكم الأمة الإسلامية في عهود أسلاف عمر منذ عهد الملك إلى الوليد ثم سليمان ويمثل الحالة السياسية قوله عمر بن عبد العزيز « الوليد بالشام والحجاج بالعراق وعثمان بن حيان بالحجاز وقوة بن شريك بمصر امتلأت الأرض والله جوراً » ويقول عبد الملك « والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه » . والناظر لهذه الدولة من خارجها يرى بدياناً سامقاً وقوة رادعة وعظمة راسخة وجيوشاً جرارة يصاحبها الفوز في أغلب معاركها ، ويرى خلفاء بل ملوكاً يفيضون على حواشيمهم والمقربين إليهم الأموال الضخمة بلا حساب ، وولاة وقوادا ينفقون ببذخ وإسراف ، وأمة تعيش منتصرة تساق إليها السبايا والرقائق من كل جنس ولون ، تترف في كل ناحية وسرف وبذخ ونعيم وحياة لاهية عابثة يحياها الأمراء والأشراف والعظماء . ولكن المتمعن فيما وراء هذه المظاهر يرى هيكلًا ضخمًا باطنه خواء وبناء شاهقًا ينخره السوس والبلاء ، فعلى الرغم من تلك المظاهر التي توحى بالقوة والقدرة والشموخ كانت هناك حقائق لا يدركها إلا المتفحصون توحى بقرب انهيار ذلك البناء وسقوط تلك الدولة إن لم يُقَدَّر لها من يزِيل من بنائها ذلك الفساد الخفي الجلي فعلى الرغم من مظاهر القوة البادية فقد كانت هناك أمراض منتشرة تنخر قوائم البناء وتقو هي دعائمه .

ومن أهم أمراض تلك الدولة وأشدّها فتكاً مرضان أخذتا ينهاكان بناءها حتى قضيا عليها وهذان الداءان هما الفساد الاقتصادي والفساد السياسي وهما داءان يصاحبان الغنى والظلميان فـخلفاء بني مروان كانوا ملوكاً فاقوا في جبروتهم وطغيانهم

وبذخهم وإسرافهم قياصرة الروم وأكاسرة الفرس . فقد اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا ، فكأن الدولة مزرعة للخليفة ينفق أموالها كما يشاء على نفسه وأسرته وبطانته ومن يلوذه من متملقين ومتزلفين ، فيبت مال المسلمين عاد خزانة خاصة للخليفة ينفق منه كما يشاء بلا حساب وقواده وولاته في أمصارهم بالخليفة مقتدون وللمال حائزون ينفقونه كما تشاء لهم الأهواء والترعات ، فإذا حدث نقص في الميزانية أزيل بظلم العباد وزيادة الضرائب ، فبعد أن كانت الأموال تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء — كما هي شريعة الله في الزكاة — أصبحت الأموال تؤخذ من الفقراء فتزد على الأغنياء من أمراء وشعراء وخطباء وأبناء وعدلت الضرائب المفروضة وأموال الخراج وأموال الصلح وزيدت كلها وفرضت ضرائب جديدة لم تكن قبلا واستعملت كافة الطرق الظالمة لتحصيلها حتى يستطيع الخلفاء والولاة أن ينفقوا عن سعة ويسرفوا كما يشاءون ويستطيعوا أيضاً أن يقاوموا الثورات المتعددة التي قامت ضد ظلمهم وطغيانهم وجبروت ولأنهم وعمالهم .

ولأجل إحكام سيطرتهم على البلاد والعباد أحيوا النعرات القبلية والعصبيات الجاهلية التي أماتها الإسلام أو كاد حتى أصبحنا نسمع عن أيام في الإسلام تضارع أيام العرب في الجاهلية ، ونشأت على ذلك أجيال لا تعرف إلا أن ماتراه من مظاهر الحياة هو الإسلام الصحيح وفي هذا يقول المجدد عمر بن عبد العزيز رحمه الله حينما بدأ التجديد والإصلاح : ألا وإني أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير وكبر عليه الصغير وفصح عليه الأعجمي وهاجر عليه الأعرابي حتى حسبه ديننا لا يرون الحق غيره » (٥) .

(٥) من أراد الاستزادة من أخبار الدولة الأموية وأحوالها فليراجع البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب للمسعودي وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والأغاني ، والعقد الفريد وأيام العرب في الإسلام وغير ذلك من كتب التاريخ والأدب .

مظاهر التجديد :

بعد ذلك العرض للحالة السياسية والاقتصادية في الدولة الأموية قبيل عهد عمر بن عبد العزيز ، فما تلك المظاهر التي جدد بها الدين واستحق أن يكون بها المجدد الأول في الإسلام ؟

لقد اتضح لعمر بن عبد العزيز من خلال معاشته لثلاثة من خلفاء بني مروان هم عمه عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان ابنا عبد الملك ، ومن خلال دراساته الدينية والفقهية وتلمذته على جلة من علماء التابعين اتضح لعمر من خلال ذلك كله أن هناك انحرافاً عن السبيل الأقوم الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده ، وأن هذا الانحراف يتضح أكثر ما يتضح في مظهرين عامين هما أكبر الأثر فيما طرأ على الأمة من تبدل في سلوكها ومفاهيمها ، هذان المظهران هما السياسة والاقتصاد فقد انحرف بنو أمية منذ تولوا الحكم على هذه الأمة بسياساتها فبعد أن كان الأمر شورى بين الأمة في اختيار حاكمها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح في عهد بني أمية استبداداً وولاية عهد محصورة بين الأبناء أو الإخوة دون النظر إلى الأصلح في الأمة ، وبعد أن كان المال يعتبر مال الله والحاكم إنما هو خازن له لا يجوز له أن يخرج منه درهما إلا بحق أصبح المال ملكاً للخليفة وأهل بيته ينفق منه كيف يشاء يعطيه من يشاء ويحرمه من يشاء .

وترتب على ذلك استبداد سياسي وأثرة اقتصادية وتسلط طبقات من الأمة عليها ، وانحراف تلك الطبقات من خلفاء وأمرء وأبناء وقادة وزعماء انحرفهم عن الحق والعدل ومجانبتهم للصواب في كثير من تصرفاتهم ميلا مع الأهواء والشهوات ، كما ترتب عليها أيضاً انعكاس في المفاهيم وتغير في الدوافع وتبدلت الغايات السامية إلى أخرى هابطة ترى في المتاع الدنيوي هدفاً وغاية .

رأى عمر بن عبد العزيز رحمه الله كل ذلك وعاشه فألى على نفسه ، بمجرد

سماعه مع الناس عهد سليمان إليه بالأمر أن يعيد النهر إلى مجراه الأول بعد أن كاد يبيس وأن يرد الأمور إلى نصابها بعد أن كاد الزمام يفلت فكان من مظاهر تجديده .

أولاً : رد الأمر شورى بين المسلمين إذ لم ير أن عهد سليمان له بالخلافة من بعده يعتبر شرعياً يبيح له تسلم ذروة الخلافة فما أن يحمل إلى المنبر — وقد عقر به لما سمع خبر توليه الأمر — حتى يرد الأمر إلى المسلمين فيقول : « أيها الناس إني ابتليت بهذا الأمر — عد الخلافة بلاء — من غير رأي مني فيه ولا طلبه ولا مشورة من المسلمين وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختراروا لأنفسكم غيري » .

ويرى المسلمون أمراً عجباً لم يسبق لهم أن شاهدوه ، وسمعوا شيئاً لم يسمعه من قبل — ولن يسمعه من بعد إلا أن يشاء الله — رأوا خليفة يعهد إليه فيرى إن عهده غير ملزم للأمة وعلى الأمة أن تختار بإرادتها وحريتها ومشيتها حاكمها — فما كان منهم جميعاً إلا أن صاحوا صيحة واحدة — : « قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك أميراً فلِ أمرنا باليمن والبركة » (٦) :

وهكذا كان أول مظهر من مظاهر التجديد رد الأمر شورى بين المسلمين في اختيار حاكمهم لكي تلزم طاعته وحتى لا يكونوا مكرهين على بيعة لم يريدوها ، فكان إجماعاً من المسلمين بالموافقة على بيعته ورضا منهم جميعاً بخلافته .

ثانياً : تصحيح مفهوم الخلافة في أذهان الناس :

هذا هو المظهر الثاني من مظاهر تجديد هذا الخليفة العظيم وهو المظهر ذو الأثر الأكبر في حملة التجديد التي قادها عمر بن عبد العزيز رحمه الله وعليه بنى كل مظاهر تجديده ومعالم إصلاحه وتصحيحاته . فقد كان خلفاء بني أمية عموماً ومنهم بنو مروان على وجه الخصوص خلفاء وأمراء المؤمنين لقباً ولكنهم في الحقيقة والواقع

(٦) صفة الصفوة ١١٤/٢ ، سيرة ابن الجوزي ٥٤٠٥٣ ، والتصحيحات المالية ٦٢ .

كانوا ملوكاً - كما قال قبيصة بن ذؤيب - بل ومن جابرة الملوك ، إذ كانوا يعتبرون الدولة كلها مزرعة لهم هم مالكوها والمتصرفون في أمورها فالأموال كلها تحت أيديهم والناس كلهم تحت رحمتهم وشخص الخليفة مقدس لا يمس فمن سب الخليفة يقتل ، ولا يجوز أن يقال له « اتق الله » كما لا يجوز أن ينادى باسمه كما لا يجوز أن يخالف أمره مهما كان ، وجعلوا بينهم وبين الناس سورا من الحراس والحجاب ومظاهر العظمة والكبرياء ، وكم عانى عمر بن عبد العزيز من جبروت الوليد بن عبد الملك وصلفه وسفكه للدماء لأنفه الأسباب وكم رأى عمر من سليمان وحرصه على الأموال ولو أنهك الرعية ولا ننسى قوله لواليه على مصر أسامة بن زيد التنوخي : احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا » (٧) . وكم رأى من مظاهر الترف والسرف والأبهة في عهود عبد الملك والوليد وسليمان وكان الهدف الدنيا لا الدين .

ورأى عمر بن عبد العزيز وقد وصل إلى سدة الخلافة أن يعيد للخلافة قدسيته وبساطتها ، ويحيي في أذهان الناس مفهومها الحقيقي وهو النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين . فالخليفة نائب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهمة الأولى للنوبة والخلافة الراشدة هي دعوة الناس إلى عبادة الله وحده والحكم بينهم بما أنزل الله ، والمال مال الله والعباد عباد الله وليس للخليفة فضل على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح وإن كان هو أثقلهم حملا وأعظمهم تبعة وأشملهم مسئولية ، ولذلك فما أن يتولى حتى يكون أول أعماله كما رأينا رد الأمر للأمة لتختار خليفتها برضاها ثم حمل نفسه والأمة على طريق الله ، فبدأ من نفسه ليحقق العدالة في أسمى معانيها ويقول « إنه لينبغي أن

(٧) الوزراء والكتاب للجهشياري ٥٢/١ .

لا أبدأ بأول من نفسي» (٨) نعم سيبدأ من نفسه من القمة لا من القاعدة ليكون القدوة والأسوة ولكي يستطيع الإصلاح والتجديد الذي يريد . ويصرف كل مراتب الخلافة ويسرح الحراس الذين يفصلون بين الخليفة والناس ويسير بين الناس ويختلط بهم كفرد منهم ويعلمها صريحة مدوية يسمعها القاضي والداني ليكون الجميع على بينة « إني والله لا أعطي أحدا باطلا ولا أمنع أحدا حقاً ، يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» (٩) ، ثم يرسل معلناً لولاته والناس « إن الله عز وجل أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يرسله جانياً » ، فالهداية أولاً وقبل كل شيء وهذا هدف الخلافة الراشدة ، ويعلم أكثر من مرة أنه متبع لا مبتدع ولن يخرج عما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده ، إذ يقول : « أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي وليس بعد الكتاب الذي أنزل الله عليكم كتاب فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة وما حرم على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا وإني لست بقاض وإنما أنا منفذ لله ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ألا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ولست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ألا وإني أثقلكم حملاً » (١٠)

فهو قد رد الناس إلى مفهوم الخلافة السليم وأوقفهم أمام القانون الذي يحكمهم به حتى لو زاغ أو أراد أن ينحرف يجد في الأمة من يرده إلى الجادة حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ويؤكد هذا المعنى ويكرره إذ يقول « سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة

(٨) الطبقات ٢٥٢/٥ ، البداية والنهاية ٢٠٨/٩ ، ابن الجوزي ١١١ ، التصحيحات ٦٤ .

(٩) صفة الصفوة ١١٤/٢ ابن الجوزي ٥٣ ، ٥٤ .

(١٠) ابن عبد الحكيم ٣٥ ، حلية الأولياء ٢٩٥/٥ ، التصحيحات ٧٨ .

على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالقها ، من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيرا» (١١) .

فعمر بن عبد العزيز هنا رسم للحكام الصورة التي يجب أن يسيروا على هديها وأوقف الناس أمام الحق الذي يراه لمفهوم الخلافة الراشدة ويبين أمرا على جانب كبير من الأهمية وهو أنه ليس لكل أحد أن يقول في كتاب الله بما يريد ادعاء بالحكم بكتاب الله - وهي صفة للخوارج والمنحرفين الذين يدعون الأخذ بالكتاب ويخالفون ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الأمر من بعده ، بل إن عمر ابن عبد العزيز هنا يعتبر أن الأخذ بتلك السنن هو الاعتصام بكتاب الله وهو القوة على دين الله وأنه لا يسوغ لأحد تبديلها ولا تغييرها أو النظر في أمر خالفها ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه ومن أعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمراد الله وفهم كتاب الله ؟ .

بل أن عمر بن عبد العزيز يحدد في خطبة له أخرى ولاية الأمر الذين يجب الاقتداء بسننهم حتى لا يترك الأمر ملتبساً فيقول : ألا أن ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه وما سن سواهم فإننا نرجعه» (١٢) فهو بذلك يقطع الطريق على كل متأول أو متقول يريد بهذه الأمة انحرافاً إذ هو يعلنها صريحة مدوية أنه سيأخذ بالسنن التي سارت عليها الأمة وأمرها جميع وشأنها واحد قبل اختلافها وتفرقها .

ثالثاً : أما المظهر الثالث من مظاهر تجديده رحمه الله فهو تصرفاته المالية وتصحيحاته للأوضاع المالية للدولة ورد الأمور إلى نصابها في المال أخذاً وعطاءً ،

(١١) ابن عبد الحكم ٣٥ التصحيحات ٧٩ .

(١٢) حلية الأولياء ٢٩٨/٥ ابن الجوزي ٩٢ ، التصحيحات ٧٩ .

فقد رأينا أن بني مروان اعتبروا المال العام مالهم الخاص فأنفقوه كما يريدون وكم وصل إلى عمر بن عبد العزيز كما وصل لغيره من أمراء بني أمية من عطاياهم وهباتهم وأقطاعاتهم وكم وهبوا لأبنائهم ونسائهم وجواريهم من مال الله ، وكم اشتطوا على الأمة في جلب الأموال وزيادة الضرائب حتى فرضوا الجزية على المسلمين من أهل الذمة وزادوا أموال الصلح وفرضوا ضرائب جديدة عديدة ، ورأى عمر بن عبد العزيز كل ذلك وأحس بالظلم الذي ترزخ تحته الأمة فألى على نفسه أن يخلصها منه فأعلن أن بيت المال لأصحاب الحقوق فيه فقط ممن سمى الله عز وجل وحدد رسوله صلى الله عليه وسلم واستن به من خلفه فطهره عمر بن عبد العزيز مدخلا ومخرجا فسد كل مداخل الحرام فألغى كل ضريبة ظالمة وأغلق ثغرات التسرب حتى يحفظه وقطع عنه كل يد كانت تمتد إليه بغير حق ، ورد ما استطاع من مظالم بني أمية عموماً وبني مروان خصوصاً وبدأ بنفسه فرد كل ما قدر عليه من اقطاعات وأموال وأثاث ورياش ومراتب حتى حلي زوجته فاطمة بنت عبد الملك وأثوابها رد كل ذلك إلى بيت المال وحرم على نفسه وأهله مال المسلمين فكان عاملاً للمسلمين دون أجر واكتفى بعبثائه مع المسلمين وقدره مائتا دينار سنوياً وغلة ضيعة له بالسويداء قدرها مائتا دينار كذلك فهذه أربع مائة دينار سنوياً ينفق منها على أهله ونفسه وأولاده ويهب منها ويعطي بعد دخل كان ينوف على الأربعين ألف دينار واكتفى بالخشن من الثياب والحشب القاسي من الطعام ، وقطع الأيدي الظالمة التي كانت تمتد إلى بيت المال ورفع تلك الضرائب الجائرة الظالمة ومن أهمها وأشدّها ظلماً وظلاماً فرض الجزية على المسلمين من أهل الذمة التي أبقاها عليهم الحجاج ومن اقتدى به في ظلمه وجوره بحجة أنهم إنما أسلموا تهرباً منها ، وكان دخلها على بيت المال عظيماً حتى خشي كثير من الولاة انكسار الخراج ونقص المالية بسبب رفعها عنهم ، وحتى نقص عطاء جند مصر بسبب إلغائها ولكن عمر بن عبد العزيز

كان يعرف أين يضع قدمه على طريق الحق فأعلنها صريحة مدوية في أكثر من خطاب وكتاب لواليه على مصر « ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يرسله جاييا ، ولعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه » (١٣) ، وكذلك يرسل لولاته على الأقاليم الأخرى الذين اشتكوا أيضاً من نقص الخراج أو الخوف من نقصه أو الطمع في الجزية لكثرتها ومن قوله لأحدهم « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حرائن نأكل من كسب أيدينا » (١٤) .

ورغم كل الضرائب المرفوعة والوجائب الموضوعة فلم يحدث النقص الذي خشيه هؤلاء بنظرتهم القاصرة بل على العكس من ذلك فقد توفرت الأموال وفاضت الخزائن وحتى يتساءل الولاة أين يضعون المال الزائد والمتوفر فقد زاد الدخل وشمخ صرح بيت المال بما كف عمر بن عبد العزيز عنه من أيدي الطامعين والناهبين .

ومع كل ذلك ينتقد بعض المستشرقين خطة عمر بن عبد العزيز في رفعه الجزية عن المسلمين ، وليس هذا غريباً عنهم لأنهم رأوا في رفعها فتح باب الإسلام ولإزالة حاجز كان يمنع آلافاً من أهل الذمة من الدخول في الإسلام فاشتد حقدهم لذلك وغازطهم أن يكون عهد عمر بن عبد العزيز عهد إسلام البلاد المفتوحة فأخذوا في الطعن فيه وفي سياسته عموماً والمالية منها على وجه الخصوص ، أقول وليس هذا غريباً عليهم لتعصبهم المقيت وحقدهم الأعمى وصلبيتهم الموروثة ولكن الغريب والعجيب أن شايعهم على ذلك بعض المؤرخين من المسلمين فيسايرونهم في تهجمهم على ذلك الخليفة العظيم وسياسته وينقلون في كتبهم عبارات أو لثك المستشرقين بنصها في الطعن عليه مع أن بعضاً من المستشرقين المعروفين بنوع من التجرد العلمي بين وجه الحق في ذلك .

(١٣) الطبقات ٣٤٤/٥ ، فتوح مصر ٣١٠ ، والتصحيحات ٢١٨ .

(١٤) الحلية ٣٠٥/٥ ، ابن الجوزي ٩٩ ، التصحيحات ٢١٩ .

رابعاً : ورابع هذه المظاهر في عهد ذلك الخليفة العظيم إعادة الخلافة إلى وظيفتها الحقيقية بعد تصحيح مفهومها بين الناس تلك الوظيفة أو المهمة الأساسية للخلافة هي نشر دين الله في الأرض ودعوة الناس إلى الإسلام ، تلك المهمة التي أهملها بنو أمية فلم يقوموا بها بل كان في كثير من أفعالهم وتصرفاتهم منع الناس من الدخول في الإسلام بوضعهم الحواجز والعراقيل في وجه من يسلمون كإبقائهم الجزية على من يسلمون ، فأراد عمر بن عبد العزيز وقد اتضح في ذهنه مفهوم الخلافة الراشدة وعقل مهمتها الحقيقية من تبليغ دعوة الله إلى الناس كافة حتى نهض يفتح الأبواب الموصدة أمام هؤلاء ، فنشر الدعاة والمرشدين وأرسل الكتب والرسائل والمعلمين واعتنى بنشر العلم وفرغ كثيراً من العلماء والقراء والفقهاء للدرس والتدريس والتعليم والإرشاد في البدو والحضر ودعا الناس من أهل الذمة جميعاً إلى الإسلام ولم يكتف بأهل الذمة أن يرفع عنهم الجزية حين يسلمون فيدخلون في دين الله أفواجا بل أعطاهم كما يعطي المسلمين وأرسل إلى كل ملوك وأمراء الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه فأسلم بدعوته كثيرون من ملوك الهند وبلاد ما وراء النهر وتسموا بأسماء المسلمين وأسلم بإسلامهم كثير من شعوبهم .

وأرسل إلى أطراف الدولة الإسلامية وإلى القبائل البربرية الوثنية من يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم الدين ويرشدتهم إلى أحكامه فكان عمله تجديداً للدعوة برز أثره واضحاً في حياته وبعد وفاته بانتشار الإسلام في كل أقطار الدولة الإسلامية وخاصة بين البربر حتى لا تجد بينهم حتى الساعة من يدين بغير الإسلام .

خامساً : حرية الرأي والتعبير والإقناع بالحسنى فقد كان للدولة الإسلامية الأموية خصومها من الداخل والثائرون عليها كثيرون وكان من أشدهم عداوة وأصلبهم عوداً وأنكاهم معارك الخوارج الذين أقضوا مضجع الدولة منذ قيامها بثوراتهم المتكررة وحملاتهم المستميتة فكانت الدولة في حرب دائمة معهم تسفك

فيها الدماء وتزهق الأرواح بسبب تعنت ولاية الأقاليم وبطشهم وجبروتهم وظلم الخلفاء وانحرافهم وجراًة الخوارج وشجاعتهم واستماتتهم في سبيل الحق الذي يروونه ، وكانت الدولة تعامل الواحد منهم أقسى معاملة وتبطش بمن يقع تحت يدها منهم أشد البطش ولم تكن الدولة تقبل ملايتهم أو مناقشتهم أو التساهل معهم وكم كلفت حملات الخوارج الدولة من مال ورجال ، ولكن لما وصل المجدد كان من أول أهدافه وقف سيل الدم المتدفق فمنع أن يقتل أحد في حد أو غيره إلا بإذنه ومنع أن يقتل أحد في غير حد أو حق من حقوق الله أو العباد يوجب القتل فلا يقتل من شتم أو سب أمير المؤمنين أو لمجرد خلاف في الرأي أو وجهة النظر وأمر بالخوارج أن يجادلوا بالتي هي أحسن وقبل بل طلب منهم أن يرسلوا له الوفود ليعرضوا عليه وجهة نظرهم وأعطاهم رهناً لضمان سلامة وفودهم وناقشهم وحاول إقناعهم بفساد رأيهم وانحرافهم فأقنعهم أو كاد وأمر ألا يقاتلوا إلا أن يقتلوا أو يفسدوا في الأرض ، ولم يقم بينه وبين الخوارج طيلة مدة خلافته سوى معركتين لم يبدأهم فيها بالقتال إلا بعد أن أفسدوا في الأرض ، ولم يمنع رحمه الله أياً كان من إبداء رأيه ولو كان مخالفاً لرأي الخليفة حتى قال القاسم بن محمد بن أبي بكر حينما سمع بولاية عمر بن عبد العزيز « اليوم ينطق من كان لا ينطق » (١٥) . نعم لقد أعطى عمر بن عبد العزيز الناس كل الناس حرية الحركة والرأي والتعبير والانتقاد البناء المثمر بل أنه أقام على نفسه رقباء لينبهوه إلى خطئه إن أخطأ أو يردوه إلى الصواب إن زاغ إذ يقول لرئيس حرسه عمرو بن المهاجر : « إذا رأيتني ملت عن الحق فضع يدك في تلبياني ثم هزني ثم قل يا عمر ماذا تصنع » (١٦) .

سادساً : اعتناؤه بالوظائف العامة في الدولة وتوليها الكفاء من حملة القرآن

(١٥) الطبقات ٢٥٣/٥ . التصحيحات ٢٥٩ .

(١٦) الحلية ٣١٥/٥ ، التصحيحات ٩٤ .

وإبعاد أهل الذمة عن المراكز الحساسة في الدولة وهو تجديد واضح الأثر في دولة مسلمة متسعة الأطراف بعيدة الاكتناف مهمتها نشر دعوة الله في الأرض بالقول والفعل ، فيعزل عمر بن عبد العزيز رحمه الله كل وال ظالم عرف من عهد أسلافه بانحرافه وظلمه للعباد أو السعي في الأرض بالفساد وولي أصلح من قدر عليه من الأمة وأوصى ولاية الأقاليم بأن لا يستعملوا على الأعمال إلا أهل القرآن فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى بأن لا يكون عنده خير » (١٧) .

وكان رحمه الله يوالي عماله وولاته بكتبه ورسائله ترشدهم وترهبهم وتردهم إلى الصواب ويأمرهم فيها بتقوى الله والإحسان إلى الرعية ويخوفهم عقاب الله . ومنع عماله في كل أقطارهم من التجارة في ولايتهم ، وزاد بأن وكل أمر وولاته إذا انصرفوا إلى الأمة لتقومهم ، قال في منشور عام قريء على الناس في الموسم « ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق فلم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم » (١٨) .

نتائج هذه التصحيحات والتجديدات :

بهذه وأمثالها استحق عمر بن عبد العزيز لقب مجدد القرن الأول كما قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أهل العلم « إن عمر بن عبد العزيز كان رأس المائة الأولى وإن كان هو أولى من دخل في ذلك وأحق لإمامته وعموم ولايته وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق » (١٩) .

وكان من نتائج هذه السياسة الراشدة المجددة أن عاشت الأمة الإسلامية طيلة تسعة وعشرين شهرا — هي مدة خلافة عمر — عاشها في أعياد روحية وحياة آمنة

(١٧) البداية والنهاية ، ٢٩٢/٩ ، التصحيحات المالية ٢٨٥ .

(١٨) الحلية ٢٩٣/٥ ، التصحيحات ١٦٢ - ١٦٣ .

(١٩) البداية والنهاية ٢٣٢/٩ .

مطمئنة يرفرف عليها جميعها علم الأمن والحرية والتقوى والإخلاص وفاض المال بالأمن وقضى على الفقر في مشارق الدولة ومغاربها حتى كاد لإخراج الزكاة يكون مشكلة للأغنياء لعدم وجود من يأخذ الزكاة منهم يقول يحيى بن سعيد : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها مني وقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولأؤهم للمسلمين » (٢٠) .

ويقول رجل من ولد زيد بن الخطاب : إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترونه في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله ، قد أغنى الله على يد عمر بن عبد العزيز الناس » (٢١) . ولم يكن الأثر مقتصرًا على المال بل حدث تبدل جذري في أخلاق الناس وعاداتهم وميولهم ويمثل ذلك تلك القولة المشهورة « كان الوليد بن عبد الملك صاحب بناء واتخاذ المصانع والضيايع ، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع . فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والحواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟ » (٢٢) .

وبعد ونحن الآن في مثل تلك الفترة التي وصل فيها المجدد الأول إلى الخلافة إذ تولى الأمر في العشرين من صفر سنة ٩٩ من الهجرة أي منذ ثلاث مائة وألف

(٢٠) ابن عبد الحكم ٥٩ ، التصحيحات ٣٤٠ .

(٢١) ابن عبد الحكم ١٠٦ ، تاريخ الخلفاء ٢٣٥ ، التصحيحات ٣٤٠ .

(٢٢) الطبري ٩٨/٩ ، البداية والنهاية ١٨٤/٩ ، التصحيحات ٦٧ .

سنة . فما أشبه الليلة بالبارحة فقد وصل عمر إلى الخلافة على غير انتظار وقام بما قام به إرادة رد الأمر إلى نصابه بعد طول انحراف فكان عمله حجة لله على خلقه من الحكام بأن من أراد أن يعمل لله وفي سبيل الله يصل إلى ما يريد في أقل مدة من الزمن يجني أعظم الثمرات وتلتف حوله قلوب الأمة كلها من أقصاها إلى أقصاها إذا لم يخش إلا الله وبدأ بنفسه فأصلحها وقومها وكانت نتائج عمله العظيمة دليلاً واضحاً على صفاء عنصر هذه الأمة وخلوص معدنها وأنها مهما انحرفت عن طريقها وابتعدت عن دربها يمكنها أن تعود إلى صوابها بأسرع وقت إذا وجدت قائداً مخلصاً يقودها على السواء ويحملها على الطريق فهي أمة تحمل في ثناياها ضعفها بذرة فتوتها ونواة حيويتها .

ونحن الآن على عتبة نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا بد من ظهور مجدد تصديقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يأتى يكون ذلك المجدد ومتى نراه وما هي مظاهر تجديده في هذا العصر الذي انقلبت فيه المعايير وانعكست فيه المفاهيم وكثر فيه الهرج واختلط فيه الحق والباطل وفسد فيه الرعاة والرعية إلا من شاء الله . فما أحوج أمتنا الإسلامية اليوم إلى مجدد يكون عام الولاية راسخ الإيمان على الهمة ثابت اليقين تزول الجبال ولا يزول تلتف حوله الأمة الإسلامية كلها ليقودها في معركة مصيرها الأخيرة على ضوء كتاب الله وفي هدي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصل بها إلى بر السلامة والأمن ، فمن يكون ؟ .

والحمد لله أولاً وأخيراً .

د . محمد صدقي البورنو